طليعة القول

نبتغي من خلال هذه الدراسة، -التي نعتبرها الجزء المكمل لدراسة سابقة معنوة بعنوان: "لسان القرآن المبين دراسة نقدية لمداخل تفسير نصوص القرآن نحو منظور لتأسيس خصوصية لسان نص القرآن"- استنطاق النصوص القرآنية الجليلة، من خلال منهج "موضوعي توحيدي ترتيلي" صرف، قصد استنباط دلالات المفاهيم المستعملة فيها نصّاً وسياقا توقيفيّاً، والتي شكّلت في تاريخ الفكر الإسلامي، أهم المحطات التي أنارت- من التنوير- وأثارت-من التثوير- الوجود الإنساني بنوعيه؛ الوجود الخَلقي والوجود الخُلقي معاً.

تعد الدراسة الدلالية لمفاهيم القرآن، وإن كانت قد تأسست بداياتها الجنينية منذ أزمنة التأويل الأولى في تاريخ الفكر الإسلامي، إلا أنها هيمنت عليها الكثير من الآفات المنهجية والمعرفية، أخرجتها عن سياقها ونَسَقها ومقصدها ونَفَسها، أو قل، أخرجتها من ناظم دلالة "الاستعمال الموضوعي"، إلى ناظم دلالة "الاستخدام التوظيفي"، ومن تلك الأعطاب:

١. **التعامل المذهبي التاريخاني المتحيز مع نصوص مفاهيم القرآن فهماً وتفسيراً؛**

بحيث إنك إذا نظرت وجدت أن إبان مراحل التأسيس المذهبي والمدرسي في مختلف أزمنة التأويل في تاريخ الفكر الإسلامي، كان الاجتهاد المذهبي يسعى دوماً إلى جر دلالات نصوص مفاهيم القرآن بكل الوسائل المتاحة جراً إلى ما ارتضاه من تصورات وأحكام، وهي في كثير منها كانت أقرب إلى التقويل والتأويل التعسفي المفرط، أو قل، التلاعب اللامحدد-من حيث آلياته الخفية- واللامحدود-من حيث سيلانه الدلالي-، منها إلى التفسير الموضوعي والتأويل المنضبط؛ قصد إيجاد ما يُسند ويُشرع الدلالة أو التصور المذهبي المنتقى، في ساحات الصراع المذهبي، الذي أذكى التجاذبات التأويلية، التي أفضت إلى التناحر والاقتتال، من باب "المنافسة المحاكاتية"، والذي جعل من مختلف الاجتهادات المذهبية التاريخية تاريخانية؛ بحيث إنها ارتبطت بلحظات ثقافية زمكانية محددة تحايثاً، غير

متجاوزة تعالياً؛ سواء من حيث الإشكالات أو المشكلات المنهجية والمعرفية. لذا فإن أغلب الاجتهاد المذهبي التاريخاني، أقرب إلى "التراث الميت" منه إلى "التراث الحي"، رغم أنف مقلدة المتقدمين من أهل الغيبوبة والاغتراب، أو من أهل الرجوع بلا مراجعة، وكأنّ كل أمر ضبط في اجتهادات الأسلاف.

٢. التعامل التجزيئي الذري مع نصوص مفاهيم القرآن استنباطاً وتأويلاً؛

بحيث إن سائد منهج التفسير التراثي، وخصوصاً التأسيسي منه في الغالب، تعامل مع نصوص القرآن مفصول بعضها عن بعض، بدون مراعاة منهج التفسير التوحيدي، أقصد ناظم السياق النصي التوقيفي بنوعيه السابق واللاحق، فضلاً عن عدم الاستئناس بناظم سياق ترتيب النزول الزمكاني. مما ولد على مستوى الدلالة كومة من الدلالات، التي لا تخضع لأي نسق معرفي معتبر. مما انعكس سلباً على منظور الفكر الإسلامي لمختلف الإشكالات والمشكلات المنهجية والمعرفية. وكأن القصد هو كشف أو استنباط دلالات النصوص تناثراً وتدابراً، وليس صهرها في نسق توحّداً وتلاحماً. مع العلم أن أهل التفسير التأسيسي، قد نبهوا إلى ضرورات مراعاة الضابط المنهجي الآتي: "القرآن يفسر" أو "يشرح بعضه بعضاً"، إلا أنه كان حاضراً على مستوى النظر التأصيلي، غائباً على مستوى العمل التنزيلي.

٣. التعامل مع نصوص المفاهيم بعلوم أو مداخل منهجية ليست متوافقة مع خصوصية القرآن؛

بحيث إن التفسير التأسيسي منذ البدايات الأولى لأزمنة التأويل في تاريخ الفكر الإسلامي، قد وضع جملة علوم منهجية لتفسير نصوص القرآن، منها: "معهود نصوص اللسان العربي بنوعيه وعلومه"، "علم أسباب-مناسبات النزول"، "علم-اجتهادات الناسخ والمنسوخ"، "المعهود الإسرائيلي ومختلف النصوص الخبرية" وعموم المأثورات ونحو ذلك. إلا أنها في جوهرها ليست متوافقة مع خصوصية النص القرآني؛ سواء بالنظر إلى محدداتها التأسيسية منهجياً، أو بالنظر إلى نَفَس مقصدها معرفياً أو دلالياً. وكنا قد فصلنا

القول في هذا الأمر في دراسة مستقلة سبقت الإشارة إليها. فضلاً عن وقفات عديدة في مصنفات ومقالات متعلقة بموضوع "القراءات الجديدة لنص القرآن الحكيم".

إن هذه الآفات وغيرها، ساهمت مع عوامل أخرى بنيوية وظرفية، في تغييب أو إقصاء الدلالات الموضوعية والمتعالية لمفاهيم نصوص القرآن. وفي أحيان أخرى كثيرة، تمّ ربط دلالات مفاهيم نصوص القرآن، بما هو سائد في أزمنة التأويل المذهبي الترسيمي، مما ضعّف أمر فك ارتباطات نصوص القرآن ودلالاتها بما هو محايث، في مختلف أزمنة التأويل في تاريخ الفكر الإسلامي، وجعل أيضاً نصوص القرآن الجليلة، تفقد معياريتها وتعاليها المطلق؛ بحيث إن كل من رام وجود ما يعزز ما هو عليه من قبليات مذهبية أو تاريخية إلا ووجده، من خلال ما يتوسل به من مناهج وآليات مأصولة أو منقولة أو مُجترحة. لذا فإن الدراسة منهجيّاً تقصد رأساً نحو بناء دلالات مفاهيم نصوص القرآن الحكيم؛ بحيث اتبعت منهجاً قائماً على "منهج القراءة الموضوعية/ التوحيدية النسقية"، من خلال الاجتهاد في سبيل تحرير دلالة الاستعمال الموضوعي، القائم على تحديد المفهوم وطبيعته الموضوعية، ثم جمع النصوص القرآنية المتعلقة به حصراً أو التي تتقاطع معه على مستوى البناء الدلالي الخاص أو العام، ثم ترتب النصوص القرآنية ترتيباً أو تقسم تقسيماً نسقياً، لرصد الدلالة الكلية للمفهوم، فضلاً عن الدلالات الجزئية له استقراء. فتكون دلالة المفهوم بالتبع، مستنبطة من النصوص القرآنية تعالياً، لا من الاجتهادات التراثية التاريخانية تحيزاً، أو قل، من باب رصد دلالة "الاستعمال الموضوعي" للمفهوم، بعيداً عن دلالة "الاستخدام التوظيفي". لذلك جاءت الدراسة بهذا العنوان التفصيلي: **بناء دلالة المفهوم في القرآن بين الاستخدام التوظيفي وتحرير دلالة الاستعمال الموضوعي نحو منهج توحيدي لقراءة مفاهيم نصوص القرآن**. فالشطر الثاني من العنوان- تحرير دلالة الاستعمال الموضوعي- يكون موضوع هذه الدراسة. أما الشطر الأول من العنوان- تحديد دلالة الاستخدام التوظيفي- فسيكون موضوع دراسة تالية بعنوان: **التلاعب بدلالات مفاهيم نصوص القرآن في تاريخ الفكر الإسلامي**. في حين كانت الدراسة

الأولى: **خصوصية لسان نص القرآن دراسة نقدية للمداخل التراثية لتفسير نصوص القرآن**، بمثابة التمهيد التأصيلي.

إن الدراسات المتعلقة بالباب- موضوع الدراسة، قليلة إلى حد الندرة في فضاء اجتهادات الفكر الإسلامي المعاصر، علماً أن أهميتها لا تغيب فضلاً أن تنكر؛ لكون "المنهج الموضوعي التوحيدي الترتيلي"، القائم على الجمع والتلحيم الدلالي بين نصوص المفاهيم القرآنية، ما زال شبه غائب على مستوى المنهج التنزيلي لدراسة النص القرآني، وإن كان حاضراً على مستوى التأصيل أو الإشارة المنهجية، إذ ما هو سائد على مستوى التنزيل التطبيقي، هو "المنهج التجزيئي الذري"، القائم على "التعضية"، أو قل، التعامل مع النصوص مفصول بعضها عن بعض، وإن كان التحذير منه قائماً على مستوى التأصيل النظري. والدراسة لا تقدم الدلالات النهائية لمفاهيم نصوص القرآن، من باب "فصل الخطاب" أو "قاطع القول"، بل لا تعدوا أن تكون مجرد دراسة أولية ابتدائية، تلامس الأرضية الأولى منهجياً ودلالياً لمفاهيم نصوص القرآن من باب التمهيد، قصد استكمال البحث في الباب من قبل اجتهادات أهل الفكر الإسلامي المعاصر، وتكون النتائج أعظم لو تم ذلك من قبل "الاجتهاد المؤسسي"، الذي ندعوا في هذا السياق إلى وضع بذوره الجنينية التأسيسية، للتقدم نحو معالمه وآفاقه.

يتكون متن الدراسة التي هي عبارة عن لبنة من جملة لبنات أخرى في مشروع بحثي طويل، ابتدأنا العمل فيه منذ زمن، من مدخل تناولنا فيه تفنيد جملة من الدعاوى التي يتمسك بها جمع من مقلدة المتقدمين المولعين بتقليد "مأصول" اجتهاد التراث الإسلامي، وجمع من مقلدة المتأخرين المولعين بتقليد "منقول" اجتهاد الحداثة الغربية. وبابين، باب يتعلق بالتأصيل المنهجي، وباب آخر يتعلق بالتأصيل الدلالي.

وَالله المُوفق نحو صَواب الرأي وسَداد القَول.

محمد كنفودي. وجدة-المغرب.

البريد الإكتروني للتواصل:

<guenfoudi.med@gmail.com>